قبلة .. ثم ضمة .. ثم قضمة !

ليليان

معا إلى الأبد في نعيم الجحيم

خوفا من أن يموت حتف أنفه ، ويلقى الله وهو عازب .. قرر أن يكمل نصف دينه .. واختارها عذراء .. فهو يحب البلبلة بالقمح ، وفطيرة الذرة بالسمن .. والعذراء كالذرة والقمح .. تطحن ثم تعجن ثم تخبز .. ثم تؤكل .. هكذا تقول حكم الرجال .. وتزوج العازب العذراء .. وأكلها .. وكان نهاره أمر وليله ليلاء .

بعد حب وتيم .. وحيرة وتردد ، خطب الكونت ليون تولستوى (٣٤ سنة) سونيا (١٨ سنة) ابنة صديقه الدكتور بيرز .. وأصر على أن يتم عقد القران بعد الخطبة بأسبوع واحد فقط .. ومن شدة ولعه بالحقيقة قرر أن يكشف لخطيبته عن حقيقة نفسه ، وأعطاها يومياته .. وقرأت سونيا خباياه وبلاياه ، وصعقت .. ولكن الحب يصنع المعجزات ، وبعد الزواج سوف يتطهر ويستقيم .

ثم جاء يوم ٢٣ سبتمبر ١٨٦٢ .. يوم الزفاف .. ودقت الساعة الثامنة مساء موعد عقد القران .. ولم يظهر العريس في الكنيسة .. ومرت ساعة ونصف ساعة ، وفقدت سونيا الأمل في الزواج .. ثم ظهر خادمه في بيتها ، وعرفت أن سبب تأخير عريسها هو عدم عثوره على قميص نظيف يرتديه .. وأخيرا عثر تولستوى على قميص .. وصلصلت أجراس الكنيسة .. وأصبحت سونيا الكونتيسة تولستوى .. كما ذكرت في الأسبوع الماضي .

موال مريع للعروس !

وبعد انتهاء مراسم الزواج عاد العروسان إلى بيت سونيا .. وأصر العريس على السفر فورا رغم الوقت المتأخر ، وعطلت عين حماته بالدمع وعين النساء بالفزع .. فشهر العسل لا يقبل الإرجاء خلفة .. والجنة لابد من الذهاب إليها فورا .. وهو الكوثر في انتظاره وهو متلهف إلى الشرب من عسله المصفى .. فقط شهر فقط سيصحب أنهار العسل ويقشر البصل ويبكى ، ويقلبه في الزيت ويكوى بطنه .. ودخلت سونيا حجرتها وخلعت فستان فرحها .. وارتدت فستان سفر من الصوف الكحلى في لون ليل بلا نجوم ليتسجم مع رعبها الكحلى من ليلة الدخلة .. وفي انتظار أن يفارقني عروسه . أرقني تولستوى مليئا بالقلق ، وبلغه بكورس من الشبابيا .

ودقت ساعة الفراق .. وانطلق العويل والنحيب .. وسدت العذراء آذانها حتى لا تصاب بالطرش .. فالكل من في البيت يبكي ويعدد ويولول كأن العريس كجزار ، والعروس شاة مساق إلى المذبح لنحرها وتسييح دمها .. وكظم الأسد الورد غيظه .. وأخرس زئيره حتى ينتهى الموال الربع والخمس والعوالى والبكائى .. ثم جلس الجميع بصمت لمدة دقيقة ليطلبوا من الله أن يرعى المسافرين ، كما جرت العادة في روسيا قبل ثمن وستائن .

وبعد هذا الدعاء الصامت انهالت القبلات والتوصيات على العروسين .. ثم ارتفع من جديد العويل والنحيب وولولت الأم .. وولولت البنت .. وزمجر الأسد .. في الخارج عربة وستة خيول ، وحوذى ومساعد حوذى .. وأبدت الخيل العريس وصهلت .. وعانقت سونيا من جديد أفراد أسرتها ، وقالت لها ذابا إنها ستموت حزنا من غيرها .. واغرورقت عيناها ليرا بالدموع .. فالمسامح كريم .. ولقد عثرت لها جرتة سرقتها عريسها .. وصعدت سونيا في «الناقلة» فهذا اسم عربة المسافرين .. فاخترقت أذنها صرخة رهيبة .. إنها أمها .. فنزلت من جديد وارتمت في أحضانها .. فرمى العريس حوله نظرة ترعب دولة وامبراطورية .. فأطلقت سراح ابنتها .

وأخيرا ليخترت الخيل فوق الوحل وتحت المطر ، ومن أمامها الليل الدامس ، ومن ورائها رجل يطقطق أصابعه بعصبية ، وامرأة مكتئبة ومذعورة .. فهذه هي المرة الأولى التى تفارق فيها سونيا بيتها وأهلها .. وصرخة أمها تدوى فى أذنيها .. وأنين ناباب يحرق قلبها .. ومن كان حبيبا أصبح زوجها .. والزوج له حقوق رهيبة على زوجته . تجهل عنها كل شيء ، وهو يخفيها .. إن له وجهين .. واحد لملاك وآخر لشيطان .. وهي تعرف ذلك ، ألم تسمه عمدا ، دربليسكى ، في قصتها القصيرة .. يا ترى أى وجه سيقدمه لها ؟ ونظرت إليه بطرف عينها . فوخزتها أشواك عينه فانكمشت في ركنها .. ثم أدارت له رأسها ، فاصطدمت عيناها بنافذة العربة .. إن الدموع تنحدر على خدودها وتغسل زجاجها .. فقبلتها .. وعضت هموها .. وأفرجت عن دموعها .. فاندهش عريسها .. انزعج .. ثم زمزم .. ثم دمدم بغضب ، واتهمها بأنها لا تحبه مادامت تتألم إلى هذا الحد لفراقها لأهلها .. ماذا تقول له ؟ ! .. إنها خائفة منه ! .. وسكتت ولم ترد عليه .. فاغتاظ من سكوتها ، وتركها تغرق في دموعها .. ولم يغلق جفنيها ولم يفتح فمه حتى وصلا إلى محطة إبدال الخيول فى بيريوليفو .. والمحطة ملحقة بها استراحة للمسافرين ، وفى الاستراحة جناح خاص لكبار الزوار يطلق عليه اسم «جناح الامبراطور» .. وفتح ناظر المحطة باب الجناح للكونت وعروسه .. فالكونت تولستوى من عظماء روسيا .

غول .. ومهرة .. وقلعة

وفجأة وجدت سونيا نفسها فى الجحيم ووسط النار .. فكل ما فى الجناح جمر ولهب ، فالأثاث منجد بالقطيفة الحمراء ، والأرض تغطيها سجادة حمراء .. والنوافذ تستر عليها ستائر حمراء .. واحمرت خدود سونيا .. وجلست بارتباك فوق جمرة حمراء .. آسفة كنبة حمراء .. فلسعتها النار .. فكومت عند طرف الكنبة .. واحتفظت بصمتها كأنها فى انتظار الحكم عليها بالإعدام رميا فى النار .. فشنج عريسها الورد ، ورمى لها نظرة حمراء .. فلم تصطدها ، وتركتها تسقط على الأرض .. ثم خوفا من أن تشعل النظرة حريقا دستها بقدمها تحت السجادة .

وأحضرت خادمة غلاية الشاى الروسية ، الساموفار ، وصينية عليها فناجين الشاى .. وانفرجت أسارير العريس ، وقال لعروسه بصوت رقيق :

— هه ! .. ما رأيك لو ضيفتني وقدمت لى فنجان شاى ؟ !

سمعا وطاعة يا مولاى .. فهو سيدها وتاج رأسها .. ومسكته سواد عينها وعرشه جنحلان قلبها .. وشربت معه فنجان شاى .. فقد جف ريقها من الصمت .. فقرقر بطنها وعرق جسمها .. دائما يفضحها بطنها .. دائما يختار بطنها الوقت غير المناسب ليصوت ترجزه وشكته .. فهو بطن قليل الذوق والحياء .. ثم نهض تولستوى من مقعده ، واتجه إلى النافذة وفتحها .. أتختنق وهو معها ؟ .. لم تمض على زواجها ساعات ! .. يا ويلها ! واندفع الهواء كالصاروخ إلى الحجرة ، وحاصرها ببرده وصقيعه فارتجفت .. ثم أغلق تولستوى النافذة وأسدل عليها الستارة .. يا ليته يتسمر فى مكانه .. ولكنه يتقدم نحوها .. فصبب العرق من كل مسامها من شدة رعبها واضطرابها .. إنه يقترب منها أكثر

وأكثر .. صحيح عنيا وبحيستها .. وأعطها ، فوق هذه الكتبة الحمراء ، هذه البقعة السخة التي كثيرا ما نكلم عنها في يومياته .. لا .. لن أستسلم .. لا .. سأقاومه .. إنه وحش ! .. غول .. غول

وفي هذه الليلة سقطت القلعة المتحصنة لانفتاح .. وانتصر تولستوى على المهرة الأبية العنيدة .. وأصبح لا مفر منها .. وماتت سونيا تلك الليلة شيئا .. فقد عثر زوجها على نفسها ، في ليلة زفافها .. بعد معركة ضارية .. عرف الشاهد أن تفاحة شجرة لها باب من حديد .. وقفل شره عنيد .. وللذكرى والتاريخ ، سجل في يومياته في نفس الليلة ، انتهى الأمر .. إنها تعرف كل شيء .. ديبوليفو .. معركة رهيبة ، إني رهيبا لرجل ! .. أعلنت فتاة مذعورة ، وتركت امرأة سيئة الظن حية الصوت ،

زمن الحب الفتى !

وفي مساء يوم ٢٤ سبتمبر وقفت عربة (الناظة) أمام مدخل « ياسنايا بوليانا » وكان في انتظار العروسين ، سرج ، أخو ليون ، وزوائيت العمة العانس التي ربته .. فقد ماتت أم تولستوى وعمره ثلاثة وعشرون شهرا ، ومات أبوه وعمره تسع سنوات .. وتقدم سرج نحو العروس وبيده صينية من الفضة فوقها عيش وملح رمز الترحيب والضيافة .. ورفعت العمة فوق رأس العروسين أيقونة رمز الخصوبة ، ثم باركتهما بأيقونة العذراء .

وفي اليوم التالي قفز قلم تولستوى يطرب فوق الورق .. وكتب « سعادة مهولة .. ستدوم مادمت أتنفس .. من المستحيل أن تنتهي إلا بنهاية حياتي » .

وظن الشمس تركو من بعيد إلى سعادته .. وهو يرنو من قريب إلى سونيا .. إن جمالها يخلبه ، وشبابها يقلب كيانه .. إنها طفلة صغيرة تريد أن تبدو كبيرة .. وما أحلى اللعب مع « امرأة طفلة » .. إنها دميته اللاعبة ، ولعبته الداعبة .. إنها مهرته وغزالته وبقرته الوحشية التي يود في كل لحظة أن يصطادها ، ويحملها بين ذراعيه ويطير بها إلى حجرتها ، ويغطيها بقبلاته .. وقبلة بعد قبلة وهمسة بعد همسة ، ولقمة بعد لقمة يأكلها ويشربها .. إن حياته نعيم في نعيم .. وقلمه المذهول يكتب ويقول لعمته وتاجيته الكسندرين « عشت أربعا وثلاثين سنة من غير أن أعرف أنه من الممكن أن أحب بهذا القدر ، وأكون سعيدا بهذا القدر .. أحس على الدوام أنني اختلست سعادة لا أستحقها ولا أستأهلها » .

ولدغت الغيرة قلب سونيا .. أيهون عليه بعد خمسة أيام من الزواج أن يخونها بقلمه ويتحدث مع غيرها ؟ ! .. لا يهم أبدا إن كانت عمته أو وحدانه .. المهم أنها امرأة غيرها ، وتتركه بكلمة .. فتقرها بكلمتين .. فجرت دموعها وسقطت على خدودها .. فشربها دمعة دمعة .. وانتشى بقطر الندى .. وسكر قلمه ، وترنم فوق الورق وهو يدندن « ٢٨ سبتمبر : كم هي لذيذة وهي تبكي ! .. أحبها أكثر فأكثر فأكثر » .

وبعد يومين ضبطها والقلم في يدها ، وهي تثرثر مع أختها تانيا .. قال فوق كتفها ، وخطف القلم منها وكتب « عزيزتي تانيا .. إرثي لحالي .. زوجتي غبية ! » .

فخطفت منه سونيا القلم وكتبت بدورها « تانيا .. هو الغبي لا أنا » .. وأعجب تولستوى بهذه اللعبة .. واستمر في اللعب .. وكتب « لابد أن يكون هذا الشيء الفج قد أحزنك ، ولكن بعد الحزن يجئ العزاء والسلوى .. وأنا وسونيا سعيدان جدا بحياتنا ، ولن نفرط فيه أبدا » . فخطفت منه سونيا القلم من جديد ، وثبت « ولكنني أريده أن يكون أذكى مني ! » .

ثم انفجر السعيد والسعيدة في الضحك .. فحياتهما ما هي إلا صدى زمن حبهما الكبير .

وسونيا لم تكن أبدا « امرأة طفلة » حسب ظن عريسها ، إنها كانت « امرأة امرأة » .. وبمجرد أن وطئت قدماها البيت انقضت بيد من حديد على زمام الأمور .. وأدارت دفتها بحزم وحزم ، وبرضت سلطتها على كل من في البيت ، وعلى رأسهم زوجها .. فلم تعجبها بعض عاداته ، وبينه عنها .. فقد كان ينام على طريقة الفلاحين على الأرض أو فوق كنبة ، متغطيا بغطاء ، ورأسه فوق وسادة من الجلد .. فأجبرته على أن ينام في سرير عليه مرتبة فوقها ملاءة ، ويسند رأسه على وسادة محشوة بريش النعام .. ولم يعجبها أيضا أن ينام الخدم على الأرض في بهو البيت وفي دهاليزه وحيثما يحلو لهم .. وخصصت لكل منهم مكانا ثابتا وعددا ينام فيه كل ليلة .

وفي أول الأمر وجدت ذات الأمر والنهي صعوبة بالغة في التحكم في الخدم ، وإرغامهم على تنفيذ أوامرها .. فقد تركت لهم العمة توانيت الحبل على الغارب .. واعتادوا على الكسل والبلادة .. فالطباخ نيقولا يفضل العزف على الناي على إعداد الطعام ، ويترك هذه المهمة لمساعده الأبله أليوشا ، الذي لا يعرف كيف يقلي بيضة أو حتى يسلقها .. وأحيانا رئيسة الخدم لا تفارق الإبر التريكو يديها ، حتى وهي تمشي تشغل تريكو .. كما أنها تعشق الحيوانات والحشرات إلى حد أنها تغذي الفئران باللبن ، والعناكب بالذباب ، وبصفتها المسئولة عن نسل كلاب الكوتش ، فهي تحفظ بالأجربة في حجرتها ، وتغطيها بفساتينها خوفا من إصابتها بالزكام .. وإذا عطس جرو أو جروة فهي تشعل شمعا أمام أيقونة القديس نيقولا .. وإذا ارتفعت درجة حرارة كلب فلا تغمض لها عين ، ولا تكف عن الصلاة إلا بعد شفائه .. ودروبانا التي مهمتها كنس التراب ، تنام طوال النهار فوق التراب .. والغسالة وبناتها لا يفعلن شيئا .. والحوذي لا يغسل العربة .. وعشرات غيرهم يعيشون في تنبلة ما بعدها تنبلة .. وجلجل صوت سونيا في كل أرجاء البيت .. وصيحة ثم زعقة .. فاستيقظ التنابلة من نومهم العميق .. ومن حين لآخر كانت تصيب شظايا صوتها طبلة أذن زوجها ، ولا يصدق أذنه ويكذبها .. فلا يمكن أن يكون هذا الصوت المجلجل هو صوت طفلته ودميته

أخطبوط الملل !

وبعد أن انتهت سونيا من عملية الضبط والربط .. واستقرت الأمور في البيت .. نظرت حولها .. فوجدت من أمامها الفراغ اللانهائي .. ومن ورائها الفطام النهائي من أمها وأسرتها .. وعن يمينها الملل .. وعن يسارها الكآبة .. إنها ترعرعت في بيت كله صخب وضجيج ، وضحك ومرح ، وشباب وحيوية .. وهنا لا

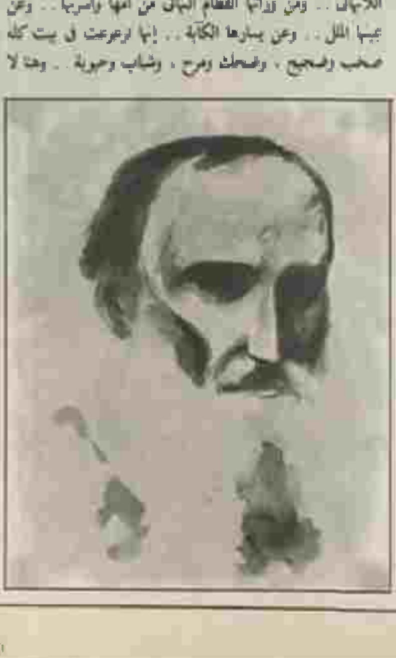

شيء سوى الصمت المميت والهدوء الكئيب ، وعطر الشيخوخة الذي يفوح حول العمة .. وزوجها يوما بعد يوم يبعد عنها ، فهو مشغول في إدارة ضيعته .. وكلما هرب من سجن عينيها تلاقفتها الوحشة .. فتعانق قلمها ، وتسود الورق بأشجانها ، ويفوح عطر الأسى من كلماتها ، ويحتق يومياتها :

« الوحشة تقتلني .. كم أنا مشتاقة إلى أمي وإلى أبي وإلى بيتنا وضجيجه .. هنا أعيش في صمت طويل رتيب .. لا صوت ولا حس . كأنني ميتة .. وهذا الإحساس ينتابني في كل مرة يغيب فيها ليوفوتشكا عن البيت ، وهو لأنه معتاد منذ طفولته على الوحشة ، يجد صعوبة في فهم إحساسي .. كم أود أن أسمع رنة ضحكة واحدة في هذا البيت .. ولكن كل شيء هنا ميت وبلا نبض .. العمة توانيت تعاملني بحنان .. ولكن حرام أن أمضي يومي كله في وجهها .. إنها عجوز ! » .

ولكن الملل أخطبوط ، ولن يستسلم له بيت بين أذرعه .. وانتشلت سونيا نفسها من بين أذرع الأخطبوط ، وارتمت في أحضان الأعمال المنزلية .. وذهبت وجاءت من البيت إلى الغيط ، ومن حظيرة الفراخ إلى عشة الأرانب ، ومن حجرة الخزين إلى المطبخ .. وراقبت الفلاحات وهن يحلبن البقر .. ووقفت على رأس الطباخ وهو يطهو الطعام .. وأمسكت كل دفاتر الحساب حتى لا يضحك أحد على ذقنها .. وأصبحت حقا وإحقاقا ربة البيت ومديرته

تفاحة القلب

وغار منها تولستوى .. وأراد هو الآخر أن يدير بنفسه شئون أرضه .. وهو يملك الآن ١٣٣٧ هكتارا .. أي حوالي ألف و٨٧٣ فدانا .. وذلك بعد أن اضطر إلى بيع ما يزيد على ألفي فدان لتسديد ديون القمار .. وزرع كرنبا لأنه يحب محشو الكرنب .. وزرع أشجار التفاح لأنه يحب زوجته تفاحة قلبه وعمره .. وتخليدا لذكرى شهر العسل قرر ألا يأكل عسلا إلا من إنتاج نحله .. وأحضر مئات من ملكات النحل ، وآلافا من العاملات من ألمانيا ، وبنى منحلة بجوار الغابة .. ثم رأى عند مزارع من جيرانه خنزيرا حيا أعجبه ، ولما عرف أنه ياباني الأصل استورد خنازير يابانية .. وتركها في رعاية صديق له سكير ، لعل العمل والمسئولية يبعدانه عن الخمر .. ولكن الصديق فضل لقب « سكير » على لقب « راعي الخنازير » .. وترك الخنازير تموت جوعا .. واعتقد تولستوى أن خنازيره أصابتها العين ، وحط عليها وباء مجهول ، فلم يشتر غيرها .. واتجه إلى مشروع آخر ، هو بناء مصنع لتقطير الشعير وصنع الفودكا ، حتى يعوض خسارته المالية الخنازيرية الفادحة ، وفضفض في يومياته عن أشجانه ومطامعه المالية .. وكتب :

« اهتماماتي الوحيدة الآن هي المال والمال والمال .. لابد أن أعوض خسارتي » .

فرد عليه قلم سونيا وهو يصرخ في وجهه بغيظ « هذا الرجل أمره عجيب ! .. همه الوحيد على الأرض كسب المال ، وإدارة ضيعته ، ومصنع التقطير .. وحينما لا يكون مشغولا بالأكل أو بالنوم أو بالسكوت .. فهو يجري ويجري يمينا ويسارا .. ودائما وحده .. ودائما وراءه مجموعة من صبيان القرية ! » .

وهؤلاء الصبيان كانوا قبل زواج سونيا .. تلاميذ يتعلمون في المدارس التي أنشأها قبل زواجها .. ولكن تولستوى بعد أسبوع واحد من زواجه كتب في يومياته « وذهبت التلاميذ والشعب .. لم يعد يهمني أحد في الدنيا سوى سونيا » .. ثم كتب بعد أسبوعين « قررت إغلاق المدارس » .. هذا مع العلم بأنه قبل الزواج بقليل كان يقول إن تعليم الفلاحين والشعب هو الهدف الأول لحياته .. ولكنه كعادته يتمسك بالشيء ، ثم لا يلبث أن يدعه لغيره .. وأحس التلاميذ بالخطر .. واعتبروا سونيا عدوتهم رقم واحد .. فبادلتهم العداء بالعداء ، فخطفوا منها زوجها .. فانتقمت منهم .. ولكن هذه حكاية أخرى يطول شرحها ■